

للاستاذ عمر عبيد حسنه

قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » .

سورة المائدة

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً وادعته يهود كلها وجعل بينه وبينهم أماناً وشرط عليهم شروطامنها ألايظاهروا عليه عدوا .

فلما قدم من بدر بغت يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد فجمعهم بسوقهم وقال :

« يامعشر يهود اسلموا قبل ان يوقع الله بكم مثل وقعة قريش . فو الله انكم لتعلمون اني رسول الله » .

فقالوا : يا محمد لا يغرنك من لقيت . انك قهرت قوما اغمارا(1) وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلنا لتعلمن انك لم تقاتل مثلنا .

فكانوا أول يهود نقضوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

روي في سبب نزول الآيات الكريمة السابقة أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست الى صائغ فيها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا منها فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا ، وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع فكان هؤلاء أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول لله صلى الله عليه وسلم . فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن حتى نزلوا على حكمه فقام اليه عبدالله ابن ابي بن سلول فقال : يا محمد احسن في موالي ! فلم يلتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرر ثانية فأعرض عنه رسول الله فأدخل يده في جيب درعه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارسلني وغضب الرسول حتى رأوا لوجهه ظللاً ثم قال :

(1) الغمر : الجاهل الغر الذي لاعلم له بحرب ولا أمر

ويحك ارسلني • قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي : اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الاحمر والاسود ، تحصدهم في غداة واحده ؟ اني والله امرؤ أخشى الدوائر • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك وأمرهم ان يخرجوا من المدينة ولا يجاوره بها • فخرجوا الى اذرعات الشام وهلك أكثرهم فيها وكان لعبادة بن الصامت من المحالفة مع هؤلاء اليهود مثل الذي لعبد الله ابن أبي • فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : انني اتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ الى الله من حلف هؤلاء الكفار فنزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ••• » الى آخر الآيات •

فاذا كانت مناسبة الآيات الكريمة ما قدمنا فلا يعني ذلك ، أن الخطاب محصور ضمن اطار المناسبة ينتهي بانتهائها ولا يتعداها الى غيرها كما يتوهم البعض ، فالقرآن كتاب الله الخالد ، وهو مجرد عن حدود الزمان والمكان ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وليس سبب النزول الا وسيلة ايضاح يرى المسلم على ضوئها الصورة كاملة ويعرف كيف يتنزل الحكم من الواقعة بلا لبس ولا غموض خاصة وأن الجيل الاسلامي الاول جعل من سلوكه ترجمة أمينة وواقعية لخطاب التكليف بعد أن بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بفعله وقوله، ولا مجال بعد ذلك لتأويل المؤولين أو تحريف المحرفين الذي يحرفون الكلم عن مواضعه خدمة لا هوائهم المغرضة ودعما لمواقفهم الخارجة عن الاسلام ووقوعهم فريسة لمخططات جاهلية •

وإذا كان قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء •• » موجه الى الجماعة المسلمة في المدينة فانه موجه كذلك الى كل جماعة مسلمة في كل زمان ومكان موجه لكل مؤمن أينما كان، وحين منع الله سبحانه وتعالى موالاة اليهود والنصارى ، في هذا النص وفي غيره مع أن المناسبة لا تتعدى اليهود الى غيرهم عين لنا جهة الولاء الوحيدة فلا ولاء الا لله ورسوله والذين آمنوا

« انما وليكم الله ورسوله والـذين آمنوا » •

فاليهود هم اليهود في كل زمان ومكان وصنائعهم من المنافقين لا يخلو منهم مجتمع والمؤمنون دائما بحاجة الى الوضوح في المنهج ليستقيموا عليه ويستمسكوا به ولا تزل الوقائع والاحداث تحمل الينا يوما بعد يوم برهان صدق كتاب الله وخلوده ولعلنا لو عدنا اليه على ضوء ما نعاني لتأكد لدينا أنه الطريق الوحيد لخلاصنا ، والمقياس الصحيح لالتزامنا •

والذي يعود الى دراسة السيرة النبوية ــ وما أحوجنا الى ذلك ــ يستلهم منها مواقف اليهود المتعددة وكيف انهم لا يدعون فرصة تمر الا حاولوا الاستفادة منها • لاخراج المسلمين عن ولائهم للاسلام فهم يذكرونهم دائما بما كان بينهم في الجاهلية من خلافات خاصة بين الاوس والخزرج • لتكون الفرقة بعد الائتلاف ويكون الضعف بعد القوة « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » •

واليهود كانوا وما زالوا الى يومنا هذه ينطلقون من نفس المواقع القديمة ، ويعمدون الى نفس الاساليب التي درجوا عليها مع تطوير بسيط في الشكل والصورة فقط يتناسب مع الظروف التي يمرون بها فهم يعمدون دائما الى صنع مجموعة من الرؤوس في داخل الصف ممن يضمنون ولاءهم وتنفيذ مخططاتهم ليعملوا على تمزيق الامة واخراجها عن ولائها لقيمها ومبادئها والخطير في الامر ان يتوهم هؤلاء أن سلوكهم وخططهم من رسم أيديهم • والذي يحاول الوصول الى الاسباب الحقيقية للفرقة والخلاف والحيدة عن موالاة الاسلام يرى جذورها مزروعة في ارض يهودية وتسقى من ماء يهودي • وكثيرة تلك الدعوات التي استنفدت اغراضها في العالم الاسلامي والتي دخلت اليه تحت اسماء مستعارة ورجال مقنعين •

وحركة النفاق التي نشأت في المدينة حركة باطنية • تبطن الكفر وتظهر الايمان • وتعمل من داخل الصف ، لانها تجبن عن المواجهة ، تعمل بوحي من شياطينها • (واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم

انما نحن مستهزئون ‥) وتوالي اليهود ، وتحمل الناس على عدم موالاة الاسلام والمسلمين ، باصطناع الحجج الواهية • (نخشى أن تصيبنا دائرة) فاليهود هم الذين وضعوا لها مبادئها ورسموا لها طريقها ومهما حاولت ان تغير من جلدها وتلون قناعها على مر الايام فلا تخرج عن كونها صناعة يهودية خالصة •

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى •••)

والحقيقة التي تستوقف المسلم هنا أيضا هي طبيعة الخطاب • فالايمان أمر طوعي اختياري • قال تعالى : (لا اكراه في الدين) وبه كرم الله ابن آدم إذ جعل المسؤولية فرع الحرية وخاطب الله الانسان من ساحة اختياره تأكيدا على دوره في الاقدام على الايمان والالتزام بأثاره فهو الذي آمن وانقاد والتزم فلا يجوز له أن يؤمن ، ثم يكفر بمظاهر ايمانه ، ولا يلتزم بالآثار المترتبة عليه ، فاذا كان مؤمنا فجهة الولاء واحدة والولاء شرط الايمان ، وأثر من آثاره ، واتخاذ اليهود والنصارى أوليا عدول عن الايمان وردة الى الكفر (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) • فكأن الانسان تناقض مع نفسه فكيف يؤمن هنا ليكفر بمولاته غير المؤمنين هناك •

وكثير من الناس الذين يخلطون في سلوكهم بين الموقف على اساس التعامل والاحسان والموقف على مستوى العقيدة ، فالموالاة وهي التعاون والتناصر بين المؤمنين على الاسس الاسلامية السليمة والمبادىء الواضحة التي تصوغ جميع المؤمنين بها • وتوحد نظرتهم ومنطلقاتهم وتجعل منهم أمة واحدة تستطيع الصمود في الوقت المناسب • فهي ضرورة ايمانية وضرورة عقلية سلوكية • فليعد العقل الى مكانه وليلتزم المسلم باسلامه ولتكن الموالاة لله ورسوله والمؤمنين •

قال تعالى :

« ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » •